

الشفاعة والتوسُّل: الحقيقة، والصيغة

معنى الشفاعة

والذي يظهر من هذه الآيات أنَّ الشفاعة بمعنى طلب بعض المخلوقات من الخالق جلَّ وعلا قضاء حاجةٍ أو غفران ذنبٍ لمحتاجٍ أو عاصٍ: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدِّدُ فَتَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (الأعراف: 53).

ومن المخلوقات مَنْ قد أَدِنَ إِيَّاهُ بالشفاعة، ورَضِيَ لَهُ قَوْلًا: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (طه: 109).

ومنهم مَنْ لم يأذن لهم، ولا يقبل لهم طلبًا: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (الزمر: 43 - 44).

ومن الطبيعي أنَّ الشفاعة النافعة يوم القيامة، بل وفي الدنيا أيضًا، هي شفاعة القسم الأوَّل، وهي شفاعةُ بإذنِ إِيَّاهُ ورضاهُ، وبالتالي تكون الشفاعة كلها له عزَّ وجلَّ: وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ (سبأ: 23).

وهؤلاء المرضيُّون المأذونون بالشفاعة لا يشفعون إلاَّ لِمَنْ ارْتَضَى إِيَّاهُ، فيشفعون له بعضَ تقصيره، وإسرافه على نفسه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَرْزَاهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَنْزَلَ فَأَعْبُدُونِي * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يُسَبِّحُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ * وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (الأنبياء: 25 - 28). وأمَّا المصيرُّ على ذنبه، المعاند لربه، المضيق لفرائضه، المكذب بآخرفته، فلا تنفعه شفاعة: إِلَّا أَصْحَابَ الَّذِينَ * فِي

الشفاعة هي توسُّلٌ بهم.

إذاً التوسُّلُ عبارة عن عملٍ يتضمَّن هدْفَيْن:

1- أن يُقَرَّرَ العبدُ ويعترف بذنبه، وأنَّه خاضعٌ خاشعٌ معتذِرٌ، وطالبٌ رضوانَ الله؛ ليكون في عداد مَن ارتضاهم الله، وأجاز الشفاعة لهم.

2- أن يطلب لمن يريد أن يتَّخذهم شفعاء الإذنَ الإلهيَّ بهذه الشفاعة، من خلال سؤال الله ذلك صراحةً.

إذاً فالخطابُ ينبغي أن يكون لله، لا للمخلوقات، مهما علا شأنُها.

هل التوسُّلُ شركٌ؟

ذكرنا في ما تقدَّم أن الله سبحانه وتعالى أمَرَنا باللجوء إلى اتِّخاذ وسيلةٍ، فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (المائدة: 35)، وحاشا لله أن يأمرَ بشركٍ. وعليه فما يُقال من أن التوسُّلَ شركٌ خفيٌّ كلامٌ باطلٌ بلا ريب.

نعم، إذا كان التوسُّلُ بمعنى الإيمان والاعتقاد بتأثيرٍ مستقلٍّ لهؤلاء المتوسِّلين، بحيث يكون لهم تأثيرٌ خاصٌّ بهم، في عرض تأثير الله عزَّ وجلَّ، وإلى جانبه، وأنَّهم لا يحتاجون إليه في تأثيرهم هذا، كان ذلك من الشرك بالله في تأثيره، في حين أن عقيدة الإسلام قائمةٌ على توحيد الله في التأثير، وأنَّه لا مؤثِّر في الكون سواه. وإلى هذا المعنى تشير الآيات الكريمة: قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (الإسراء: 56 - 57)، وَإِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ زُلْفَتَهُ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الزمر: 2 - 3).

أمّا الإيمان والاعتقاد بتأثيرٍ مقيّدٍ، أي في طول تأثير الـ عزّ وجلّ، وبعد إذنه ورضاه، بمعنى أنّ الـ جلّ وعلا هو مَنْ منح هؤلاء القدرة على التأثير، وخوّلهم التصرّف في بعض الأمور، فهو ممّا لا يتنافى مع التوحيد أبداً، بل هو في صلب التوحيد، حيث لا يمكن لأحدٍ غيره سبحانه وتعالى منح هذه القدرة وهذه الطاقة.

وهذا هو المعنى الصحيح - الذي نرتضيه - للتوسّل بالأنبياء والأولياء.

وكذا الاستشفاع بهم؛ فإنّهم يشفعون بإذن الـ، ولمَنْ ارتضاه الـ للشفاعة، فهم عبادٌ مكرّمون، لا يَعْصُونَ الـ ما أمّرهـم، ولا يسبقونه بالقول، وهم بأمرهـ يعملون. ونحن باستشفاعنا بهم نطلب الإذن لهم بالشفاعة من الـ عزّ وجلّ.

هذه هي حقيقة الشفاعة والتوسّل الذي نؤمن به، والذي لا مجال للطعن فيه بأنّه شركٌ خفيّ.

الصيغة الأفضل للتوسّل والاستشفاع

لقد ورّدت في الأدعية المأثورة، الثابتة عن أهل بيت العصمة والطهارة، عباراتٌ تتضمّن معنى الاستشفاع والتوسّل، من قبيل:

1- ما ورد في دعاء يوم الخميس: «اللهم صلّ على محمد وآله، واجعل توسّلي به شافعاً، يوم القيامة نافعا» [1]. [2]

2- ما ورد في دعاء التوبة: «اللهم صلّ على محمد وآله، وشفّّع في خطاياي كرمك» [2]. [3]

3- ما ورد في الدعاء عند قراءة القرآن: «اللهم اجعله لنا شافعاً يوم اللقاء، وسلاحاً يوم الارتقاء» [3]. [4]

4- ما ورد في دعاء السحر في شهر رمضان، المعروف بـ (دعاء أبي حمزة الثمالي): «اللهم، إنّني بدمّة الإسلام أتوسّل إليك، وبحرمة القرآن أعتمد عليك» [4]. [5]

5- ما ورد في التوسُّل بمحمَّد وآل محمَّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين: «اللهمَّ، بهم إليك توسُّلي وتقرُّبي» ([51]).

6- ما ورد في بعض الأدعية: «اللهمَّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد، واسمع كلامه إذا دعاك، وأعطه إذا سألك، وشفِّعه إذا شفع» ([61]).

7- وكذا: «اللهمَّ شفِّع محمَّدًا في أمِّته، واجعلنا ممَّنْ تشفِّعه فيه برحمتك. اللهمَّ اجعلنا في زمرة، وأدخلنا في شفاعته» ([71]).

8- وكذا: «اللهمَّ، إنِّي لو وجدتُ شفعاءً أقربَ إليك من محمَّد وأهل بيته الأخيار، الأئمَّة الأبرار، لجعلتُهم شفعاي. فبحقِّهم الذي أوجبتَ لهم عليك، أسألك أن تدخلني في جملة العارفين بهم وبحقِّهم، وفي زمرة المرجوِّين لشفاعتهم» ([81]).

9- وكذا: «وأسألك بذلك الاسم؛ فلا شفيع أقوى لي منه، وبحقِّ محمَّد وآل محمَّد، أن تصلِّي على محمَّد وآل محمَّد، وأن تقضي لي حوائجي، وتُسَمِّعَ محمَّدًا وعليًّا وفاطمة والحسن والحسين وعليًّا ومحمَّدًا وجعفرًا وموسى وعليًّا ومحمَّدًا وعليًّا والحسن والحجَّة صلوات الله عليهم وبركاتهم ورحمتهم صوتي؛ ليشفعوا لي إليك، وتشفِّعهم فيَّ» ([91]).

10- وكذا: «اللهمَّ، هؤلاء أهل الكساء والعباء يوم المباهلة، ومَن دخل من الإنس والملائكة المقرَّبين، اجعلهم شفعاءنا» ([101]).

والملاحظ في هذه العبارات أنَّها كلّها بصيغة الخطاب إلى عزِّ وجلِّ، واستئذانه، والطلب منه أن يرتضي بأن يكون الشيء الفلاني أو الشخص الفلاني شفيعاً.

كما أنَّ عبارات التوسُّل تظهر أنَّ الخطاب إلى عزِّ وجلِّ في أن يأذنَ باتِّخاذ هذا وسيلةً.

وعليه من منطلق الالتزام بما جاء في الدعاء المأثور، أي الوارد عنهم عليهم السلام، وهو أفضلُّ من اختراع دعاءٍ أو استعمال صيغةٍ مغايرةٍ للمصنِّع المأثورة، نقول: حَرِّيْ* بالمؤمنين الالتزام بما في هذه الأدعية الثابتة من صيغ للتوسُّل والاستشفاع، بدلاً من إنشاء مصنِّع مختلفة، وإنَّ وردت في بعض الأدعية والزيارات غير الثابتة؛ لضعف إسنادها، أو عدم وجود إسنادٍ لها أصلاً، من قبيل:

1- ما جاء في إحدى زيارات الحسين عليه السلام: «فَكُنْ لِي يَا سَيِّدِي سَكَنًا وَشَفِيعًا، وَكُنْ بِي رَحِيمًا، وَكُنْ لِي مَنْجًى يَوْمَ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى، يَوْمَ لَا تَنْفَعُ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ، وَيَوْمَ يَقُولُ أَهْلُ الضَّلَالَةِ: مَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ، وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ، فَكُنْ يَوْمئِذٍ فِي مَقَامِي بَيْنَ يَدَي رِبِّي لِي مَنقِذًا؛ فَقَدْ عَظُمَ جُرْمِي إِذَا ارْتَعَدَتْ فَرَائِصِي، وَأَخَذَ بِسَمْعِي، وَأَنَا مِنْكَ رَأْسُ رَأْسٍ؛ بِمَا قَدَّمْتُ مِنْ سُوءِ عَمَلِي، وَأَنَا عَارٍ كَمَا وَلَدْتَنِي أُمِّي، وَرِبِّي يَسْأَلُنِي، فَكُنْ لِي يَوْمئِذٍ شَافِعًا وَمَنقِذًا، فَقَدْ أَعْدَدْتُكَ لِيَوْمٍ حَاجَتِي وَيَوْمَ فَقَرِي وَفَاقَتِي»([111]).

2- ما جاء في إحدى زيارات قبور أئمة البقية عليهم السلام: «فكونوا لي شفعاء»([121]).

3- ما جاء في دعاء الكفاية: «يَا جَبْرِئِيلُ يَا مُحَمَّدٌ، يَا جَبْرِئِيلُ يَا مُحَمَّدٌ - تَكَرَّرَ ذَلِكَ -، أَكْفِيَانِي مَا أَنَا فِيهِ؛ فَإِنَّكُمَا كَافِيَانِ، وَاحْفَظَانِي بِإِذْنِ اللَّهِ؛ فَإِنَّكُمَا حَافِظَانِ»([131]).

4- ما جاء في دعاء الفرج: «يَا مُحَمَّدُ يَا عَلِيٌّ، يَا عَلِيٌّ يَا مُحَمَّدٌ، أَكْفِيَانِي؛ فَإِنَّكُمَا كَافِيَايَ، وَانصُرَانِي؛ فَإِنَّكُمَا نَاصِرَايَ»([141]).

5- ما جاء في دعاء التوسُّل: «يَا سَيِّدَنَا وَمَوْلَانَا، إِنَّا تَوَجَّهْنَا وَاسْتَشْفَعْنَا وَتَوَسَّلْنَا بِكَ إِلَى اللَّهِ، وَقَدْ مَنَّاكَ بَيْنَ يَدَي حَاجَتِنَا، يَا وَجِيهًا عِنْدَ اللَّهِ اشْفَعْ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ»([151]).

6- ما جاء من الدعاء عقيب صلاة الحجّة عليه السلام: «يَا مُحَمَّدُ يَا عَلِيٌّ، يَا عَلِيٌّ يَا مُحَمَّدٌ، أَكْفِيَانِي؛ فَإِنَّكُمَا كَافِيَايَ. يَا مُحَمَّدُ يَا عَلِيٌّ، يَا عَلِيٌّ يَا مُحَمَّدٌ، انصُرَانِي؛ فَإِنَّكُمَا نَاصِرَايَ. يَا مُحَمَّدُ يَا عَلِيٌّ، يَا عَلِيٌّ يَا مُحَمَّدٌ، احْفَظَانِي؛ فَإِنَّكُمَا حَافِظَايَ. يَا مُوَلَايَ يَا صَاحِبَ الزَّمَانِ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -، الْغُوثُ الْغُوثُ الْغُوثُ، أَدْرِكْنِي أَدْرِكْنِي أَدْرِكْنِي، الْأَمَانُ الْأَمَانُ الْأَمَانُ»([16]).

7- ما اعتاده بعض الناس من استدعاء القوّة والعون بقولهم: «يَا عَلِيٌّ مَدِّدٌ»، وغير ذلك من العبارات.

اللَّهُمَّ أَرِنَا الْحَقَّ حَقًّا، وَارزُقْنَا اتِّبَاعَهُ؛ وَأَرِنَا الْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَارزُقْنَا اجْتِنَابَهُ؛ وَلَا تَجْعَلْهُمَا مُتَشَابِهَيْنَ عَلَيْنَا، فَتَسْبَحَ هَوَانَا بِغَيْرِ هَدًى مِنْكَ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.